أثر الثقافة الوافدة في تطور التفسير المعاصر

إعداد

م. د. محمد داود موسى

جامعة الأنبار – كلية التربية للعلوم الإنسانية

ed.mohammed.dawood@uoanbar.edu.iq

الملخص

لقد كان للأفكار والثقافات الوافدة أثر ملموس في تفسير القرآن الكريم في عصرنا، أسهم هذا الفكر في صناعة بعض مناهج المفسرين أو مناهج الأدعياء منهم.

ومع ما عُرف عن الفكر الوافد من سلبيات عديدة أسهمت في انحراف تفسير القرآن الكريم، فإن لا بد أن يُعلم ما له من أثر حسنٍ في تطور التفسير المعاصر.

وعليه فإن عملي فهي هذا البحث هو إبراز أثر الفكر الوافد في تطور التفسير المعاصر وكينونته على الشكل الذي هو عليه الآن.

الكلمات المفتاحية : الثقافة الوافدة، تطور التفسير ، قراءة معاصر

The Precis

Expatriate ideas and cultures have had a significant impact on the interpretation of the Quran , this thought contributed on the manufacture of some curriculum interpreters or methods of pretends from them.

Despite the many negative aspects of incoming thought , they contributed to the deviation of the interpretation of Quran ,some must have known it’s impact on the development of contemporary interpretation.

Therefore my work in this research is to highlight the impact of incoming thought on the development of contemporary interpretation and its being on form it is now.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان، وأودعه دقائقَ الحكمةِ وباهرَ البرهان، وجعلَهُ في أعلى مراتبِ البلاغةِ وأسمى درجاتِ البيان، فأعيا مصاقعَ العربِ من بني عدنان وبني قحطان، على أن يأتوا بمثل أقصر سورة من سوره تحدياً مستمراً إلى آخر الأزمان.

والصلاةُ والسلامُ الأتمانِ الأكملانِ على من أوتيَ جوامع الكلم وحسن التبيان، محمد بن عبد الله سليل المجد وحبيب الرحمن، وعلى آل بيته الطاهرين عن وصمة الأدران، المبرأين عن دنس أهل الزيغ والافتراء والبهتان، وصحابته أهل الفضل والإحسان، خير صحبة وأفضل أقران، ما طلع النيران، وتعاقب الملوان.

أما بعد: فإن للثقافة الوافدة أثر كبير في تطور التفسير المعاصر، أسهمت في رسم اتجاهاته المتنوعة، وقد تطرقت في البحث المتواضع إلى تأثير الثقافة الوافدة بكلا جانبي تأثيرها، الإيجابي وهو النادر القليل أو السلبي وهو الأغلب، وكيف أصبح التفسير بأثر الثقافة الوافدة وكيف تطورت اتجاهاته.

إن الدارس في الثقافات الوافدة التي دخلت في التفسير المعاصر يبصر بجلاء الأثر السلبي الذي تركته في التفسير، وقد بان أثر هذه الثقافة الوافدة من خلال التقسيم الذي أبرزته لأقسام التفسير المعاصر، وهو على ثلاثة أقسام، قامت بالأساس على مدى تأثير الثقافة الوافدة في كل قس منها.

أهمية الموضوع:

لأثر الثقافة الوافدة في التفسير المعاصر بصمات لا يمكن تجاوزها وذلك لأنها شكلت في بعض اتجاهات التفسير تغييراً جذرياً في حركته التفسيرية، بل يمكننا القول أن

الثقافة الوافدة كانت منبعاً لبعض اتجاهات التفسير المعاصر، لذلك فإن دراسة أثرها –نظرياً وعملياً– يبرز قيمة هذه الثقافة في التفسير المعاصر، ويحلل مدى تدخلها فيه.

أسباب اختيار الموضوع:

إن سبب اختيار الموضوع متعلق بحالة التفسير في وقتنا المعاصر، وكيف أصبح متنوع الاتجاهات والمشارب، وكيف أسهمت هذه الاتجاهات إيجاباً وسلباً في تطور التفسير؟ وكيف كان للثقافة الوافدة أثر في تكوين بعض الاتجاهات أو المساهمة في تكوينها؟ فالإجابة عن هذه الأسئلة في جزئيات هذا البحث تمثل الأسباب التي دعت لاختيار الموضوع.

نسأل الله أن يتقبل منا هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

المطلب الأول

مفهوم الثقافة الوافدة

أولاً: ماهية الثقافة ومفهوم الثقافة الوافدة

دخلتْ الثقافة في العصر الحديث في شتى المجالات الحياتية، وأصبحت تستعمل استعمالاً واسعاً، إذ لم تصبح مقتصرة على مجموعة من الأفكار فحسب، ولكنها تستعمل للدلالة على الرقي الفكري والاجتماعي والأدبي للأفراد والجماعات.

لذا عبر عنها الدكتور عبد العزيز التويجري بأنها: مركب يتضمن المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات[١].

فالثقافةُ نظرية في السلوك تمثل طريق الحياة، والطابع العام الذي ينطبع به شعب من الشعوب، وهي الوجوه المميزة لمقومات الأمة، التي تتميز بها عن غيرها من الجماعات بما تقوم به من العقائد والقيم والمبادئ واللغة والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب.

وتتميز ظاهرة الثقافة بتعدد عناصرها، وذلك راجع إلى تعقد هذه الظاهرة، فهي الإطار المرجعي الذي تتمثل فيه سلوكيات الفرد، وهي أيضا تمثل المؤشرات التي تحدد سلوكيات الفرد والمجتمع معا، كما أن الثقافة تدخل عاملاً في تشكيل تصورات الأفراد وأنماط حياتهم اليومية داخل تركيبة المجتمع المعقدة، التي تتفاعل ضمنها عناصر الثقافة جميعها، ومن أهم هذه العناصر اللغة، والديانة، والنظام الاجتماعي، والنظام الاقتصادي، والنظام السياسي والايدولوجيات والاعتقادات والفن والأدب والعادات والتقاليد ومظاهر الحياة اليومية"[٢].

---

(١) ينظر: الثقافة العربية والثقافات الأخرى، عبد العزيز التويجري: ١١-١٢.

[٢] ينظر: النوع الثقافي وعلاقته بالقيم التنظيمية داخل المنظمات متعددة الجنسيات في الجزائر ، عبد المجيد بكاي: ٣٩- ٤٤، وأثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، زغو محمد:٣.

فالثقافة من خلال ما سبق في الإنتاج الذي يصدر عن كل مجتمع بما في ذلك المجتمع من تنوع وتناقض وتغير وثبات، مستلهمة التجارب والأفكار المتحققة وغير المتحققة التي اكتسبها الإنسان من خلال تفاعله مع البيئة، فالثقافة هي نسيج معقد يجمع في تركيبته الأفكار والمعتقدات والتقاليد وغير ذلك، مشكِّلة من خلال هذا النسيج قوةً تمثل كل مجتمع بتراثه ومقوماته.

أما الثقافة الوافدة فهي: "المفاهيم الفكرية العلمية والسلوكية التي ينقلها أفراد من خارج المجتمع إلى ثقافة مجتمع آخر فيؤثرون في ثقافته وتكوينه"[1].

ثانياً: الثقافة الوافدة في المنظور الإسلامي:

إن الثقافة الإسلامية تتميز بعناصر أساسية تمثل كيانها، وصلبها الذي تقوم عليه، ولأن تفسير كتاب الله (عز وجل) لا يمكن أن يكون تفسيراً مقبولاً إلا إذا كان تفسيراً منضبطاً بقواعد الإسلام وثقافته، التي تقوم في بعض عناصرها على منع دخول ثقافات وافدة تقارع الفكر التأصيلي الذي رسمه الشارع الإسلامي للولوج في حيثيات النص القرآني.

ومن جهة أخرى لا يمكننا أن نعُدُّ الفكر الإسلامي فكراً انطوائياً مقتصراً على ما يجيء من داخله، من غير أن ينظر للإبداعات الفكرية الصادرة عن الديانات والأمم الأخرى، بل على العكس من ذلك تماماً، فشرائعُ الإسلام وأصوله داعمة للإبداع الفكري ما دام مؤطراً بقواعد وأصول تعدُّ حدوداً لا يمكن العبور خارج أسوارها.

وقد أسست الشريعة الإسلامية طريقة التعامل مع الثقافات الأخرى، التي تمثل الثقافات الوافدة إلى الشريعة الإسلامية، متخذة مسلكين ينظمان العلاقة بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى.

---

[1] أثر الثقافة الوافدة على العلاقة الزوجية في المجتمع المسلم وسبل مواجهتها، نجوى أحمد ميرزا: ٣٤.

المسلك الأول: التعامل مع العلوم المدنية المكتسبة من الثقافات الأخرى

دلنا النبي (صلى الله عليه وسلم) على الطريقة المثلى للتعامل مع الوافد من الثقافات الأخرى، الذي يتمثل في العلوم المدنية وذلك من خلال قوله: "أنتم أعلم بأمور دنياكم"[١].

وهذا توجيه يقتضي الأخذ بنظر الفرد المعلم أو المجتمع الإسلامي إلى المصلحة المكتسبة من الأخذ بهذا الوافد، وعلى هذا الأساس يكون التعامل به في المجتمع الإسلامي، فمتى ما كانت هنالك مصلحة دنيوية من وراء ذلك فليس من مانع يمنع من الأخذ بها، فالأخذ بها حينئذ مسموح به بل قد يكون واجباً وذلك حسب ما تقتضيه الحاجة وضرورتها.

المسلك الآخر: إدخال العلوم الدينية المكتسبة من الثقافات الأخرى

وفي هذا المسلك حدث الانحدار الذي حذر من الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وحذر من اجتياز أسواره، فكما أنه رسم مسلكاً للتعامل مع العلوم المدنية، فإنه حدد الإطار الذي يتم التعامل بحدوده مع العلوم الدينية، وما عناه (صلى الله عليه وسلم) بقوله: (مَن أحدثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ منهُ فهو ردٌ)[٢].

فالنبي (صلى الله عليه وسلم) من خلال هذا الحديث والحديث الآنف الذكر يرسم لنا الخطوط العريضة في التعامل مع المجالين، فالعلوم الشرعية يُعد فيها الإبداع والتجديد: هو استطاعة المجدد أن يُعيد الناس لمنهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومنهج أصحابه (رضوان

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الفضائل – باب: وجوب المثال ما قاله شرعا دون ما ذكره صلى الله عليه وسلم – من معايش الدنيا على سبيل الرأي: ١٥/ ٧ ، برقم: ٩٢٧٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الصلح– (باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود): ٣/ ١٨٤، برقم: (٢٦٩٧)، وصحيح مسلم: كتاب الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور؛ ٥/ ١٣٢، برقم: (٤٥٨٩).

الله عليهم)، أما الإبداع في العلوم المدنية: فهو التحرر من الماضي واستحداث الجديد الذي يوافق مسار التطور والعصرية.

وهذا هو مكمن التفريق الجوهري بين العلوم الشرعية والمدنية، وهو ما تناساه كثير من الباحثين، فتراهم للأسف قد قلبوا هذه المعادلة، ففي العلوم المدنية ليس لهم إلا الاستيراد والتقليد، ولا نرى إبداعات عربية مدنية حقيقية، تخرج بنا عن إطار الماضي، وفي العلوم الشرعية ليس لديهم إلا الإحداث والابتداع بما يتعارض مع المنهج النبوي.

فالعلوم المدنية يطلب فيها الاختراع وهو موضع الإبداع فيها، أما العلوم الدينية فلا يحمد فيها الاختراع، بل موضع الإبداع فيها العودة إلى الأمر الأول، وغاية ما يحمد الاختراع في العلوم الدينية هو في الوسائل والآليات لا في أصول المعاني والمفاهيم، بل الاختراع في أصول المعاني إحداث وابتداع مذموم، ولذلك فإن النبي أسس معلم النجاة في العلوم الشرعية بقوله: (هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)[١].

وفي ذلك يقول الدكتور إبراهيم السكران: "ولعلك لاحظت أن التجديد في العلوم الشرعية، هو ضد التجديد في العلوم المدنية، فالتجديد في العلوم الشرعية إخراج المستحدثات، والتجديد في العلوم المدنية هو إدخال المستحدثات"[٢].

وهذا الذي ذكرنا انعكس على التفسير المعاصر بمسلكية كليهما، بما في المسلك الأول من إيجابيات، وما في المسلك الثاني من سلبيات، وهذا هو جوهر تأثير العوامل الثقافية الوافدة في أي فكر كان.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، برقم: ٤٨٨٦، من حديث أنس بن مالك .

(٢) سلطة الثقافة الغالية، إبراهيم السكران: ١٥٩- ١٦٠.

وهذا لا يعني أن علم التفسير علم مفتح الأبواب، لا توجد على مداخله مرافق حماية وتوجيهات، بقدر ما هو اقتحام من قبل غير المتأهلين لتفسير القرآن الكريم في وقتنا المعاصر، وتجاوزهم لأصوله وقواعده التي لا يقوم دونها.

ومما يعلم بداهة أن المصطلحات الشرعية الواردة في الكتاب والسنة لا يجوز توسيع معناها ولا تضييقه، إلا بدليل من الكتاب او السنة يقتضي هذا أو ذاك، لما في ذلك من تأثير في دلالة اللفظ والخروج عن مقصوده بشيء ليس من جوهره المقصود.

إذ إن من المحظور في تفسير القرآن الكريم توسيع معنى اللفظ ليتناول معنىً جديداً لا يدل عليه اللفظ ضمن نطاقه الشرعي، أو أن تضيق معاني اللفظ وذلك بإخراج بعض صوره منه دون حجة أو بيان تخصيص.

ومثال ذلك تفسير بعض المعاصرين للفظ الزاني في قوله تعالى: (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) [النور: ١] بأن المقصود من المعنى كثير الزنى، كما فسروا السارق في قوله تعالى: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) بأنه كثير السرقة، وعلى هذا الأساس لا يقع الحد بسبب الزنا مرة واحدة أو بسبب السرقة مرة واحدة، أو لم يكن معروفة بذلك، وإنما يقع فيمن يتكرر منه هذا الفعل[١].

ومثل هذا الفهم لهذه الأحكام القرآنية يُعدُّ تضييقاً للمقصود الشرعي وهو أمر منهي عنه قطعاً، وذلك لأنه ليس مقصد النص القرآني، كما أنه لا توجد أي قرينة تنصر هذه المعاني التي ذكرناها، كما لم يقل بها أحد من مفسري السلف.

---

(١) ينظر: الانحراف الفكري في التفسير المعاصر، يحيغ٧٧ى شطناوي: ١/ ٣٥٠ – ٣٥٥، واتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر للرومي: ٣/ ١٠٩٤.

وتعقيباً على هذا الأمر إذا كان المفهوم المقصود من النص القرآني لا يوسع أو يضيق إلا بدليل، فكيف بمن يستبدل هذا المفهوم بمفهوم مغاير تماماً للمنشود من دلالة النص القرآني.

المطلب الثاني

أثر الثقافة الوافدة في تطور التفسير المعاصر

إن تطور الأمم والشعوب الأخرى فكرياً وحضارياً وثقافياً كان له انعكاسات جلية على تفسير القرآن الكريم في الوقت المعاصر، إذ إن الناظر في مدارس التفسير المعاصرة يرى تأثير الطفرة الثقافية في أوروبا وغيرها على جميع المعالم الحياتية في مجتمعنا المسلم.

إن الناظر اليوم لمدارس التفسير يرى أن توجه التجديد الفكري فيها قد انشطر بمجمله إلى ثلاثة أقسام: -

التوجه الأول: توجه تمسك بالإرث التفسيري الذي خلفه لنا المفسرون الذين سبقوا عصرنا هذا، والذي يشتمل على التفسير الأثري وما ضُمِّن خلاله من أقوال فقهية وفكرية، فكان توجهاً كلاسيكياً في الآلية والمضمون، فتضمن إعادة ترتيب الأقوال التفسيرية، ودراستها وإخراجها للناس محققة مهذبة.

التوجه الثاني: توجه تجديدي منضبط: وهو توجه دعا إلى تجديد التفسير المعاصر على عدة نوافذ، كأن تكون اجتماعية أو بيانية، أو أدبية، أو غير ذلك، وهذا التوجه التزم بأصول التفسير وقواعد فهم النص القرآني بشكل عام.

التوجه الثالث: توجه تجديدي منحرف: ويتمثل هذا النص بإخضاع القرآن الكريم لقواعد غربية تخالف أصول التفسير، بل وتتضارب مع قدسية القرآن الكريم والمسلّمات التي علمت بالضرورة منه.

وعليه فإن الفكر الوافد قد ساهم بتطور التوجهات التفسيرية الثلاثة في وقتنا المعاصر وصيرورتها على ما هي عليه الآن.

أما نوع المساهمة في تطور توجهات التفسير المعاصر، فقد تمثلت بالتوجه الأول وهو التفسير الكلاسيكي (الأثري) ملحوظًا، إذ كان من أهم الأسباب التي دعت إلى تكثيف الاهتمام به، هو ردتُ فعل لما نتج من اتجاهات منحرفة في التفسير خالفت ما قام عليه هذا التوجه التفسيري.

أما **التوجه الثاني** الذي تمثل في الاتجاه التجديدي المنضبط فقد كان من أهم أسباب قيامه هو محاكاة الطفرة الفكرية التي تمثلت بالتقدم الحضاري والثقافي للعالم الأوربي، إذ حاول رواد هذا الإتجاه تفسير القرآن على نسق عصري لا يخرج عن قواعد التفسير وقد أفلحوا بذلك بصورة عامة.

أما **التوجه الثالث** فتمثل بالاتجاه المنحرف في التفسير المتمثل بـ (التأويلات الحداثية) الذي كان من أهم أسباب نشوء هذا التوجه هو انبهار بعض أبناء الجلدة بالتقدم الغربي ومحاولتهم تقليدهم وانتهاج مسالكهم.

ولكي نستبين أثر الثقافة الوافدة في التفسير المعاصر لابد من الإتيان بأمثلة تشفع لما قدمنا له من تنظيرات.

مثال تطبيقي في أثر الثقافة الوافدة على المسلك التجديدي المنحرف:

لقد كان لأصحاب القراءة الحداثية موقف من التراث التفسيري الذي خلّفه ملف المفسرين على امتداد الرسالة الإسلامية، وبما أن القرآن الكريم هو المصدر التشريعي الأول في الإسلام، الذي من خلاله نقتبس مشاعل النور لمواجهة ما يبرزه الواقع من مستجدات، فإنه جاء ليكون المرشد والحكم في القضايا بمختلف مناحيها.

وعلى هذا الأساس دعا أصحاب القراءة الحداثية إلى إعادة قراءة النص القرآني قراءة عصرية؛ ولكن الدعوة التي دعوا إليها حملت في مضامينها إعادة أسس ومضامين تخالف أصول

وضوابط فهم القرآن الكريم، وكان من ضمن ما خالفوه من أصول، هو التعامل السلبي مع التفاسير التي خلّفها سلف الأمة (رضوان الله عليهم).

ومواقفهم في ذلك جلية للعيان، فلا تكاد تقرأ في سبل التجديد عندهم إلا رأيتهم يتمتعون ويعيبون على التراث التفسيري، وبأصرح ما يكون من العبارات، وقد عبر عمّا في نفسه أحد رواد المدرسة الحداثية وهو محمد شحرور[١] مُبدياً رأيه في تفسير السلف، حين يقول: "فإذا سألني سائل: ألا يسعك ما وسع الصحابة في فهم الكتاب والقرآن؟ فجوابي بكل جرأة ويقين هو: كلا، لا يسعني ما وسعهم؛ لأن أرضيتي العلمية تختلف عن أرضيتهم، ومناهج البحث العلمي عندي تختلف عنهم، وأعيش في عصر مختلف تماما عن عصرهم، والتحديات التي أواجهها تختلف عن تحدياتهم"[٢].

بكل سهولة يريد محمد شحرور هذا أن يساوي بين قدماء المفسرين ومعاصريهم في تفسيرهم الكتاب الله (عز وجل)، وهو حين يصرح بأن فهوم السلف لا تسعه، فإنه يدعو إلى ترك تفاسير السلف والاستغناء عنها بتفاسير المعاصرين.

وليس هنالك من اعتراض على مواجهة تحديات العصر بما يناسبها من حلول قائمة على التأصيل الحقيقي، الذي يستمد تلك الأصالة من القرآن الكريم، ومما فهمه من فهم السلف، ومما فعلوه من سبل وأدوات تعين على الفهم، وتحوط به من الانحلال والانجراف وراء ما لا

---

(١) محمد شحرور ديب، من مواليد دمشق عام ١٩٣٨م، يعد من رواد الاتجاه الحداثي، له العديد من المؤلفات، أبرزها: (الكتاب والقرآن – قراءة معاصرة)، و (الإسلام والإيمان – منظومة القيم) وغيرها العديد من الكتب والأبحاث، والكاتب وما زال على قيد الحياة (هداه الله). ينظر: https://shahrour.org/?page id=2

(٢) الكتاب والقرآن، محمد شحرور: ٥٦٧.

يصح التفسير به، ولكن محمد شحرور يأبى ذلك ويرفضه، بل يعد الرجوع إلى القرون السابقة والتفكير كما فكروا وأن نقدم إسلام القرن السابع في القرن العشرين مغالطة كبيرة [١].

وهذا الذي قاله شحرور من السطحية لا يمكن تصوره، وأي مضطلع في الإسلام يعرف التجديد وسبل تكييف الأحكام لتكون موافقة للتحديات المعاصرة، وإن تعجب فأعجب من قوله هذا، فسبيله إلى التجديد هو نسف كل ما جاء عن السلف في تفسيرهم وهذا باطل لا مرية فيه إذا علمنا أن التجديد بدون تأصيل بناء في هواء ورحم العلامة الدكتور أحمد مطلوب[٢] اذ قال: "المُجدد إذا لم يصدّر عن التراث يظل بعيداً عن الأصالة"[٣].

وأما علي حرب[٤] فقد وصف تفسير السلف بالتفسير الكلاسيكي **(القديم بلا قيمة)** الذي فسروه بحدود ما امتلكوه من إمكانات، بل يقول إنه لا فرق بين المفسرين الكلاسيكيين وبيننا، إلا أنهم فسروا القرآن بحدود إمكاناتهم المعرفية المتوافرة عندهم آنذاك ومصطلحاتهم المتداولة في عصرهم، في حين يرى في مدرسته أنها تستعمل المفاهيم العصرية التي زودتهم بها العلوم الحديثة التي تتداول بشكل خاص في الحقل المعرفي الغربي.[٥]

---

[١] المصدر السابق: ٥٦٦.

[٢] الدكتور أحمد مطلوب: من مواليد مدينة تكريت، ولد يوم الأحد ٢٥ تشرين الأول ١٩٣٦م، حصل على الدكتوراه في البلاغة والنقد بمرتبة الشرف من جامعة القاهرة سنة ١٩٦٣م، نال جائزة الملك فيصل العالمية في فرع اللغة العربية والأدب مناصفة مع الأستاذ محمد رشاد محمد الصالح حمزاوي (التونسي الجنسية) عام ١٤٢٨هـ، ومن المناصب التي تولاها وزير الثقافة والإرشاد ١٩٦٧م، تجاوزت مؤلفاته (٩٠مؤلفًا) ما عدا التحقيقات. ينظر: الدكتور أحمد مطلوب السيرة العلمية.

[٣] معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ٧.

[٤] علي حرب كاتب ومفكر وفيلسوف لبناني، له العديد من المؤلفات، أبرزها: (نقد النص) (النص والحقيقة: الممنوع والممتنع).

[٥] ينظر: نقد النص، علي حرب: ٧٨.

والملمح المهم في رأي علي حرب الذي يجب أن ينتبه عليه هو لمزه تفسير السلف، على أنه تفسير كلاسيكي لم تتوفر فيه مكامن المعرفة جميعها، زاعمًا أن سبب ذلك البيئة التي انعدم فيها التطور الذي يحصل في عصرنا اليوم.

ثم عمد على مقارنة ما كان عليه السلف من إمكانيات وأدوات في فهم النص القرآني وبين ما يمتلك هو وزمرته من أدوات، يعترف بقرارة نفسه أنها وافدة إليه من الغرب، وما قصد من عقد هذه المقارنة المتلبسة بالتدليس إلا تفضيل ما أتى به هو ومدرسته من استعمال النظريات والمفاهيم الغربية في تحليل الخطاب القرآني على الموروث التفسيري.

ويقع من حيث لا يعلم حين يعترف بأن هذه المصطلحات والمفاهيم وافدة من الغرب إليه، وبذلك ناقض ما ينظر إليه حسن حنفي صاحبه في المشرب[١]، حين يصف تقعيده للتجديد، محاولاً أن يثبت أن التجديد الحاصل إنما هو وليد البيئة وتلاقح الحوامل الثقافية فيها ليس غير، فيقول: "لا يدل التراث والتجديد على أثر خارجي من بيئة ثقافية أجنبية، وإلا وقع ضمن محاولات التجديد القائمة على العقلنة من الخارج، ولكنه يعني إعادة بناء للتراث من داخله بما أتيح له من وسائل"[٢].

وإعادة بناء التراث من داخله بما أتيح من وسائل هو مطلبنا، ولكن كيف يتم إعادة الترميم من الداخل، وأنتم ترون أن لا صلاحية لفهم السلف، بل ولا لفهم النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولكن التدليس كان المورد والمعتمد عندهم، فدافعوا عن استقلالية مشروعهم التجديدي دفاعا صدق فيه قول الشاعر: كاد المريب بأن يقول خذوني"[٣].

---

[١] حسن حنفي مفكر مصري من مواليد عام ١٩٣٥م، له العديد من المؤلفات منها: (من العقيدة إلى الثورة)، (التراث والتجديد)، وغيرها.

[٢] التراث والتجديد، حسن حنفي: ٥٩

[٣] ديوان ابن سهل الأندلسي: ٠٧٨

وإن من تمام البعد عن الموضوعية ومجانية سبل الحق أن يصل الأمر بالحداثيين إلى التجرؤ على سلف الأمة وتغليظ القول في حقهم، حتى إن أحدهم قال: "من سُمّوا أهل السلف من العلماء والمحدّثين والذين أُؤثِرُ تسميتَهم أهل الإنغلاق"[١].

وأما كيفية تقويض دعاوى الحداثيين وتنظيراتهم، فإن ذلك ليأتي أول ما يأتي من داخل منهجهم الذي امتلأ عن آخره بالتضارب والتدليس، وأن منهجاً يدعو إلى التجديد تجد في ثناياه هذه الاضطرابات والمعاكسات الفكرية والمنهجية، حقيق به أن يرد، وأن لا يؤخذ به.

ولم يكتف رواد هذا الاتجاه بتنظيراتهم القائمة على معاداة التراث التفسيري الذي خلّفه لنا المفسرون، بل تجاوزوا ذلك إلى تطبيقات عملية من خلال تفاسيرهم ومصنفاتهم التي ألّفوها، فاستحدثوا أقوالاً في التفسير لم يسبقهم إليها أحد، خالفوا فيها جمهور المفسرين من السلف والخلف، بل خالفوا في كثير من الأحيان ما علم من ديننا بالضرورة، مهمشين بذلك أصول التفسير، متخلفين عن ضوابط الفهم.

ففي قوله تعالى: **(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ)** [آل عمران: ٨٥]، قال محمد عابد الجابري[٢] في تفسيرها بعد أن عرض أقوال المفسرين: "وبالتالي فالمعنى الذي نرجحه هو كما يلي: ومن يبتغ ديناً غير مُنزلٍ من الله فلن يقبل منه. بمعنى أن من يتبع ديناً غير دين إبراهيم فلن يقبل منه. وهذا ما يفيده السياق ويشهد له الواقع فقد أعترف الاسلام باليهودية والنصرانية وفرض على أهلهما الجزية في مقابل الزكاة" [٣].

---

(١) نقد النص، علي حرب: ١٦٢.

(٢) محمد عابد الجابري (و١٩٣٦م– ت٢٠١٠م) مفكر وفيلسوف عربي من المغرب، له ٣٠ مؤلفاً في قضايا الفكر المعاصر، أبرزها "نقد العقل العربي" و"تكوين العقل العربي" و"إشكاليات الفكر العربي المعاصر" و"فهم القرآن: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول". ينظر: ويكيبيديا: https://ar.m.wikipedia.org/wiki/ .

(٣) فهم القرآن الكريم (التفسير الواضح حسب أسباب النزول)، محمد عابد الجابري: ٣/ ١٤٥

ولكي يمهد الجابري لهذا الرأي الفاسد فإنه يحاول أن يلوي أقوال المفسرين على غير مدلولاتها ومقاصدها، فيقول على الزمخشري بأنه فسر الإسلام بالتوحيد المتضمن لكل ديانة سماوية برأيه، ويحاول أن يعضد قول الإمام الزمخشري بقول ابن كثير، فيقول: ونحن نرى أن عبارة ابن كثير إذا أُخذت على عمومها تلتقي مع عبارة الزمخشري الذي فسر الإسلام بالآية بدين التوحيد"[١].

لقد عمد الجابري إلى بتر كلام المفسرين ليستشهد بكلامهم على ما ذهب إليه وقرره في تفسير الآية، فهذا هو الزمخشري رحمه الله وإن كان قد فسر الإسلام بالتوحيد وإسلام الوجه لله تعالى[٢]، دون أن يبين أن المقصود بالإسلام هو آخر الأديان السماوية، إلا أنه أتبع ذلك بذكر مناسبة للآية وسبب نزولها، وكان مدلول كلامه (رحمه الله) أنه قد عنى بالإسلام هو الدين الذي جاء به النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)؛ بل قرر هذ المعنى في موضع آخر من تفسيره، بعد أن تكلم على حادثة فتح مكة وكيف عفى الرسول (عليه الصلاة والسلام) عن أهلها الذين ناصبوه العداء، أتبع ذلك قائلاً: "ثم بايعوه على الإسلام في دين الله في ملة الإسلام التي لا دين له يضاف إليه غيرها"[٣]، ثم ذكر الآية التي نحن بصددها.

وشيء آخر استغله الجابري هاهنا في تفسير الزمخشري، وهو أننا نعلم أن كل مصطلح يدور معناه على ثلاث حقائق، حقيقة لغوية، وأخرى شرعية، وثالثة عرفية، وهاهنا نعلم أن قصد الزمخشري في تفسير الآية إنما يتجه إلى الحقيقة العرفية، وهذا ما يمليه سياق الآية إذ إنه لم يكن يتحدث عن مسألة لغوية ولا عن حكم شرعي في الآية، إنما كان يتحدث عن المعنى العام للآية، الذي يتوجه بطبيعة الحال إلى جماهير المسلمين، والمشاع في عرف المسلمين أنه بمجرد

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري: ١/ ٣٨١.

(٣) المصدر نفسه: ٤/ ٨١٠.

إطلاق كلمة الإسلام يتبادر إلى الأذهان مباشرة الدين الذي ختم الله به الرسالات وهو دين نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم).

ولا أدري بأيّ وجه أخذ الجابري تفسير ابن كثير للآية على عمومه، وقد صرح ابن كثير تصريحاً لا مرية في ولا شبهة في قطعية دلالة الآية على أن الإسلام هو الدين الذي جاء به النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) لا غير، وأنه لا يقبل من أحد طريقه ولا عملا إلا إذا كان موافقا لشريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد أن بعثه الله بما بعثه به، وأما قبل البعثة النبوية فكل من اتبع الرسول الذي في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة[1].

وقد تقصيتُ غالب تفاسير السلف، فلم أجد أحداً قال بتفسير الجابري للآية، وكلهم كانوا يردون تفسير لفظة الإسلام إلى الدين الذي جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأن بقية الأديان السماوية كان يقبل منها العمل قبل مقدم الرسالة المحمدية، أما بعد ظهور هذا الرسالة فإنها نسخت جميع الأديان السابقة سماوية كانت أم وثنية[2].

وقد كانت عبارة الراغب الأصفهاني من الوضوح بمكان في تفسير الآية، إذ قال: "هذه الأديان كلها منسوخة بدين الإسلام، وأن الله عز وجل جعل لهم الأجر قبل وقت النبي (عليه السلام)، فأما في وقته، فالأديان كلها منسوخة بدينه ..."[3] ومثله كان صاحب الهداية في تفسيره

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٥.

(٢) ينظر: جامع البيان، الطبري: ٢/ ١٥٥، ومفاتيح الغيب، الرازي: ٧/ ١٧٢، ولطائف الإشارات، القشيري: ١/ ٢٥٦، وتفسير الخازن: ٣٧٦/١، والفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: ١١٧/١.

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني: ١/ ٢١٥.

إذ قال: من لحق بمبعث محمد (صلى الله عليه وسلم) فليس يقبل منه غير الإيمان[١]، وهكذا صرح أبو حيان في تفسيره للآية، فقال: "وردت الشرائع كلها إلى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم"[٢].

ونحن إذا ما تفكرنا قليلاً في البون الحاصل بين قول الجابري في تفسير الآية، وما قاله السلف، نجد أن هنالك مسافة شاسعة بين القولين، حتى إنه يمكن للقارئ أن يقول إنهما: متعاكسان أو متضاربان، وحقيقة لم يكن الجابري بذلك الغباء لكي يقع في مصادمة مع السلف في تفسيرهم بهذه الطريقة المكشوفة، وهذا هو الذي طرق ذهني لأبحث عن جذور قريبة مهدت لهذا القول، وأعدت له طريقاً سالكاً.

كما كان متوقعاً وجدتُ من مهّد لهذا القول من أصحاب المدرسة التجديدية، ألا وهو المُراغي[٣]، إذ يقول في تفسيره للآية: "إن جميع الملل والشرائع التي جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع... فالمسلم الحقيقي من كان خالصًا من شوائب الشرك، مخلصًا في أعماله مع الإيمان من أي ملة كان، وفي أي زمان وجد"[٤].

ولعل هذا المثال وما شابهه من أمثلة كان السبب الأكبر في الاعتراض على تفاسير المدرسة التجديدية، على أن هذا يدل على أن في المدرسة الحداثية شيء من مخرجات هذه المدرسة، مع أن هذا القول لم يقل به أحد غير المراغي من رواد هذا الاتجاه[٥].

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب: ١ / ٢٩٣.

(٢) البحر المحيط في التقصير ، أبو حيان الأندلسي: ١/ ٣٨٩.

(٣) هو أحمد بن مصطفى المراغي مفسر مصري، من العلماء. تخرج بدار العلوم سنة ١٩٠٩ ثم كان مدرس الشريعة الإسلامية بها. وولي نظارة بعض المدارس. وعين أستاذا للعربية والشريعة الإسلامية بكلية غوردون بالخرطوم. وتوفي بالقاهرة. له كتب، منها: الحسبة في الإسلام، الوجيز في أصول الفقه، تفسير المراغي. ينظر: الأعلام، الزركلي: ١/ ٢٨٥.

(٤) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي: ١١٩/٣.

(٥) ينظر: تفسير المنار ، محمد رشيد رضا: ٣/ ٢٩٥ – ٢٩٦، ومحاسن التأويل، القاسمي: ٢/ ٢٩٦، والتحرير والتنوير، ابن عاشور: ١/ ٥٣٩.

وللقارئ أن ينظر إلى كمية التعبئة التي أوردها الجابري لكي يحصل منشوده، ويسعى لإثبات رأيه بشتى الوسائل، وهذا كله من خلال تفسير آية واحدة عن طريق استقطاع كلام السلف، والالتفاف على بعضه والاستشهاد به في غير موضعه، والتأصيل المزور الذي لا يمثل تفسير السلف.

ولا أبلغ معرفة من الرسيوني[1] إذ قال : "إن هدم أي مرجعية لا يأتي إلا بتفكيكها من الداخل وتقويضها من الأساس، أما أن تحوم حولها ولا ترد وترمي ولا تقرطس فمسلك لا تعقبه الثمرة المرجوة! ومن هنا كان ولوجهم إلى ساحة القراءة، لأجل الإيهام بموقع القران الكريم في دائرة التشريع وتخدير العواطف بالإقبال عليه تفسيراً وتأويلاً، فإذا تمكنوا من تعطيل الحاسة النقدية لدى الجماهير سهل عليهم إفراغ النص القرآني من محتواه وجعله قالباً لأيدولوجية القارئ"[2].

النتائج

١- كان للثقافة الوافدة أثر إيجابي، وآخر سلبي على تطور التفسير المعاصر.

٢- أسهمت الثقافة الوافدة في إنتاج اتجاهات تفسيرية مبتكرة ضمن نطاق قواعد التفسير.

---

(١) هو أستاذ الفقه وأصوله المشارك في جامعة الشارقة، له مؤلفات عدة، منها: صناعة الفتوى في القضايا المعاصرة، النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، وغيرهما.

(٢) النص القرآني من تهافت القراءة الى أفق التدبر ، قطب الرسيوني: ٤١٥.

٣- ساهمت الثقافة الوافدة ولو بشكل غير مباشر في إعادة النظر في الإرث التفسيري من حيث التحقيق والإخراج والتوثيق وغير ذلك.

٤- جلبت الثقافة الوافدة كثيرًا من الأفكار الهابطة التي أقحمت في تفسير النص القرآني مع مخالفتها لأصول التفسير وقواعده.

المصادر والمراجع

- **القران الكريم**

١- اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ١٤٠٧هـ- ١٩٨٩م.

٢- أثر الثقافة الوافدة على العلاقة الزوجية في المجتمع المسلم وسبل مواجهتها، نجوى أحمد ميرزا، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية.

٣- أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب، محمد، زغو، (٢٠١٠م)، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية.

٤- الانحراف الفكري في التفسير المعاصر، يحيى شطناوي، (اطروحة دكتوراه)، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية.

٥- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الأندلسي، تح: صدقي محمد جميل (١٤٢٠هـ)، بيروت، لبنان: دار الفكر.

٦- التراث والتجديد (موقفنا من التراث)، حلفي، حسن (١٤١٢ - ١٩٩٢م)، ط٤، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – ليفان).

٧- تفسير الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تح: د. محمد عبد العزيز، د. عادل بن علي الشدي بسيوني، د. هند بنت محمد بن زاهد سردار، (ط١)، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، مصر: كلية الآداب – جامعة طنطا ، دار الوطن – الرياض الطبعة الأولى: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، كلية الدعوة وأصول الدين – جامعة أم القرى الطبعة الأولى: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.

٨- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م.

٩- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي ابن كثير، تح: سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع، (ط٢)، ١٩٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

١٠- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، (ط١)، (١٣٩٠ هـ - ١٩٤٦م)، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

١١- التنوع الثقافي وعلاقته بالقيم التنظيمية داخل المنظمات متعددة الجنسيات في الجزائر ، عبد المجيد بكاي ، (٢٠١٥-٢٠١٦م)، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، إشراف: أ.د. رابح العايب، الجزائر.

١٢- الثقافة العربية والثقافات الأخرى، عبد العزيز بن عثمان التويجري، (٢٠١٠م)، (ط٢)، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

١٣- جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة (١٩٢٠ هـ - ٢٠٠٠م).

١٤- الجامع الصحيح، مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري، بيروت، لبنان: دار الجيل بيروت - دار الأفاق الجديدة.

١٥- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ، دار طوق النجاة.

١٦- ديوان ابن سهل الأندلسي، (١٩٢٤هـ-٢٠٠٣م)، تحقيق ودراسة: يسري عبدالغني عبدالله، (ط٢)، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

١٧- سلطة الثقافة الغالبة، ابراهيم السكران، (١٤٣٥هـ -٢٠١٤م)، (ط١)، الرياض، السعودية، دار الحضارة للنشر والتوزيع.

١٨- فهم القرآن الكريم (التفسير الواضح حسب أسباب النزول)، محمد عابد الجابري، (٢٠٠٩م)، (ط١)، المغرب: دار النشر المغربية.

١٩- الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، محمود نعمة الله بن النخجواني، (ط١)، (١٤١٩ - ١٩٩٩م)، الغورية، مصر: دار ركابي للنشر.

٢٠- قواعد الترجيح المتعلقة بالنص عند ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير – دراسة تأصيلية تطبيقية، عبير عبدالله النعيم، (ط١)، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، أطروحة دكتوراه، الرياض، المملكة العربية السعودية: دار التدمرية.

٢١- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، (ط٢)، ١٤٠٧ هـ، بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.

٢٢- لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الخازن، (١٣٩٩هـ -١٩٧٩م)، بيروت، لبنان: دار الفكر.

٢٣- لطائف الإشارات ، القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، تح: إبراهيم البسيوني، (ط٣) مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٤- محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، تح: محمد باسل عيون السود، (ط١)، (١٤١٨هـ)، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

٢٥- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تح: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة.

٢٦- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د. أحمد مطلوب، (٢٠٠٧م)، (ط١)، بيروت، لبنان: مكتبة لبنان ناشرون.

٢٧- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين الرازي، (ط٣)، (١٤٢٠هـ)، بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.

٢٨- نقد النص، على حرب، (٢٠٠٠م)، (ط٤)، الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.

٢٩- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، مكي بن أبي طالب القيرواني، (ط١)، (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م)، الشارقة، الإمارات: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة.